الأعياد والمناسبات في دمشق في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ)

أ.د.فراس سليم حياوي م.م. رواء يوسف حمزة
جامعة بابل /كلية التربية الاساسية

المقدمة

تعد مدينة دمشق من المدن المهمة التي كان لها أثراً مهماً في تاريخ الدولة العربية الإسلامية، وزخرت الحياة العامة في دمشق بأنواع من مناسبات الأفراح والأحزان في المدة التي نحن بصددها، كغيرها من المدن والأمصار الإسلامية، فضلاً عن الأعياد الإسلامية كعيد الفطر المبارك وعيد الأضحى، ولكل مناسبة احتفال يليق بتلك المناسبة، وعلى العموم يتم لبس الجديد والتصدق على الفقراء والترويح عن النفس بالتسلية واللهو المباح، إلى جانب ذلك هناك احتفالات بمناسبات خاصة منها الاحتفال بمناسبات الزواج والختان وولادة الطفل، فضلاً عن المراسيم المتبعة في المآتم والأحزان. وقد تطلبت طبيعة البحث تقسيمه على محاور عدة تناولنا فيها الأعياد والاحتفالات كعيد الفطر المبارك وعيد الأضحى المبارك وعيد نوروز ورأس السنة ويوم عاشوراء وغيرها من المناسبات المهمة في حياة المسلمين عامة والدمشقيين بصور خاصة، وفي محور آخر تناولنا فيه الاحتفالات العائلية كحفلات الأعراس والختان وولادة الطفل والمآتم ومناسبات عائلية أخرى.اعتمد البحث على مجموعة من المصادر التي أَثْرَتْ الموضوع يأتي في مقدمتها كتاب (تاريخ دمشق) لابن القلانسي، وكتاب (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر، وكتاب (النجوم الزاهر في ملوك مصر والقاهرة) لابن تغري بردي، وكتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي، وكتاب (إغاثة الأمة بكشف الغمة) المعروف بـ(الخطط المقريزية) للمقريزي، وكتاب (نزهة الأنام في محاسن الشام) لأبي البقاء، وغيرها الكثير من المصادر الأولية والمراجع الحديثة أدرجناها في نهاية البحث.

الأعياد والاحتفالات :كان للعرب المسلمين في هذه المدينة أعيادهم الخاصة، كغيرهم من الأديان الأخرى، وهي مناسبات يحتفلون بها معبرين عن فرحتهم وابتهاجهم، بالشكل الذي يليق بتلك المناسبات والأعياد، ومن أهمها ما يأتي :

١- عيد الفطر:من مظاهر الاحتفال بعيد الفطر عند المسلمين لبس الجديد من الملابس والتصدق على الفقراء والتزاور وكان المسلمون ينتهزون فرصة العيد للترويح عن أنفسهم بالتسلية واللهو المباح، والإقبال على تناول بعض الأطعمة[i]، والتي يتم التهيؤ لها قبل مدة، وقد يتخلل ذلك الخروج إلى المتنزهات[ii]، وعرفت مدينة دمشق هذه الصور من الاحتفالات عبر عصورها المختلفة[iii].كان الخلفاء والأمراء والولاة يحتفلون بعيد الفطر احتفالاً دينياً، فيؤمون الناس في الصلاة، ويلقون عليهم في فضائل العيد، وما يجب على المسلمين إتباعه للمحافظة على شعائر الإسلام، وكانت مظاهر الاحتفال بالعيد تتشابه في اغلب المدن الإسلامية، لاسيما في مدينة دمشق وبغداد والقاهرة وبيت المقدس[iv]. أما في العصر الفاطمي فكان الحكام والأمراء وحتى العامة يحتفلون بهذه المناسبة بالذهاب إلى الميدان الأخضر الشمالي بمدينة دمشق للاحتفال بهذه المناسبة فقد اشتهروا بأسمطتهم في الولائم العامة والخاصة، وسفراتهم في المتنزهات وكان للأطفال وسائلهم للتعبير عن فرحتهم في هذه المناسبة، فيخرج ولدان، وقد صبغا جسدهما بالسواد فيضحكون الأطفال ويستدرون إحسان الكبار بالرقص والقفز ويرددون كلمة بيضة بيضة[v].كما يعبر الصوفية عن فرحتهم بهذه المناسبة من خلال ما يلبسون من ثياب بيض فضفاضة ويضعون على رؤوسهم (كلاها) وهو لباس مستطيل الشكل، أما شيخ الخانقاه أو الرباط فيضع فوق الكلاها[vi].وكان أهل مدينة دمشق يحتفلون بهذه المناسبة بأخذ سماط كبير في القصور، ويحضره ناس من جميع الفئات[vii]، فتقدم الحلل إلى الأمراء والإشراف وغيرهم في هذا العيد، لذلك سمي عيد الفطر (بعيد الحلل)، بالإضافة إلى توزيع الملابس والأطعمة والنقود الذهبية على الضيوف والموظفين على اختلاف درجاتهم[viii].تصل بشائر هذا العيد من ليلة (٢٧ رمضان)، التي يجتمع فيها أهل مدينة دمشق في الجامع الأموي، فيغني المغنون قصائد الوداع لرمضان ويرقص الدراويش وثيابهم مطرزه بشكل هندسي، وعلى رؤوسهم مثل علب اللبن الشامية العتيقة، ويدورون من حول أنفسهم [ix]، والمآذن تقوم في سواد الليل، تضحك للدنيا بنور المصابيح، والسحر يقرع بطبله عقب النهار، والباعة يبتكرون أناشيد لوداع رمضان من أروع الشعر[x].وكان القاضي يجلس في مجلسه الخاص ينتظر من شاهد الرؤية الشرعية لهلال شهر شوال، وكان ينظر عادة من جنوب البلد أو من شرفات المئذنة، ويشهد الشهود ويقضي القاضي بدخول العيد فيسري حكمه على جميع الناس في مدينة دمشق[xi].وترى مدينة دمشق قائمة على قدم وساق، القلابات تنصب في كل مكان، في مقبرة الدحداح، وفي الحدائق والبساتين والبسطات[xii] التي تفرح نفوس الأطفال.أما صلاة عيد الفطر فيصف ابن الطوير أنه إذا قربت الأيام الأخيرة من شهر رمضان استعد الناس لصلاة عيد الفطر، فيتهيأ الولاة والأمراء وأصحاب

الرتب على باب القصر، فإذا أعلن العيد استعدوا للصلاة، فيلبسون ثياب بيضاء موشحة، وفوق رؤوسهم مضلة[xiii] شرط أن تكون بلون الثياب التي يلبسونها، ويكون خروجهم من باب العيد[xiv] إلى المصلى ويبدءون بفرش الطراحات في المحراب ويعلق أيضاً سترين على يمينه ويساره، يضع في الأيمن «البسملة» و«الفاتحة» و﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[xv]، وفي الأيسر بعد الفاتحة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[xvi]، فيصلي صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة، وتقرأ في كل ركعة ما هو مرقوم في السترين تذكاراً، فإذا فرغ وسلم صعد الأمير أو الوالي إلى المنبر ليخطب خطبة العيد[xvii].يرجع الاحتفال بهذا العيد إلى عهد الرسول (ﷺ)[xviii]، ويبدأ الاحتفال عادة بزكاة الفطر، التي تسبق صلاة العيد، بعدها يجتمع المسلمون في المسجد لأداء مراسيم الصلاة[xix]، ثم ينصرفون إلى منازلهم. إذ روت لنا الأخبار جانباً من احتفالات الفاطميين[xx] في هذا الشأن، وكذلك شأن السلاجقة[xxi]، بينما روى لنا ابن واصل جانباً من احتفالات الزنكيين، من ذلك، ذكره الاحتفال بعيد الفطر في عهد نور الدين إذ قال: (ففي يوم العيد، وهو يوم الأحد... ركب نور الدين على الرسم المعتاد إلى الميدان الأخضر الشمالي بدمشق، لطعن الحلق، ورمي القبع[xxii]، وأمر، فضربت له في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر... ثم مد السماط العام)[xxiii]، ويستمر ابن واصل في وصف الاحتفال في اليوم الثاني من العيد، فيقول : (يوم الاثنين، ثاني شوال، ركب نور الدين مع خواصه وأصحابه، ودخل الميدان، والأمير همام الدين بن مودود- وهو من أكبر أمرائه يسايره- وقال لنور الدين : (وهل تكون هنا مثل هذا اليوم في العام المقبل؟!)، فقال نور الدين: وقل هل تكون هنا بعد شهر؟ فإن السنة بعيدة)[xxiv]، عمامة خضراء، وكانوا يقومون بحركات إيقاعية، فيدورون على أنفسهم على نغمات موسيقية مطربة[xxv].ومن مظاهر متابعة الاحتفالات بهذه المناسبة السعيدة من قبل العوام ومعظم الناس، أنهم يتجهون إلى الميدان الأخضر[xxvi]، للتمتع بمشاهدة العسكر وتدريباته[xxvii]، وفعالياته بصور الفروسية المختلفة، كما يذهب بعض من الناس استكمالاً لممارستهم إلى الربوة التي تقع على جبل قاسيون[xxviii]، والتي هي الأخرى من المتنزهات الجميلة التي يمارس فيها اللهو المباح بأنواعه.

٢- عيد الأضحى: اهتمت مدينة دمشق بالاحتفال بعيد الأضحى في شيء من الأبهة، حيث يمتاز الاحتفال بدرجة كبيرة من الروعة، فكان يقام في أول يوم منه سماط حافل، ويتميز بركوب الخيل إلى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى، واشتراكه في إجراءات النحر[xxix].فكانت الأنوار تسطع في أرجاء المدن الإسلامية في ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير وتزدحم الأنهار بالزوارق وعلى جوانبها أنوار القناديل، وتتوافد عليها البشائر والوفود وتدق له الطبول، ثم يقدم في الموكب الضخم الذي يملأ البلد بهجة وفرحة، وتذبح الذبائح في الطرق والساحات[xxx]، والحكوات تستعد بالحكواتي والكركوزاتي (القرقوز)، فيعد ذلك في المدة التي نحن بصددها كأنه سينما، فيصنع الأعاجيب ويمثلها ويخرجها فكان يُبدع في تمثيله[xxxi].خلال هذه الأفراح التي تعم البلاد تنغمس النساء في البيوت في صنع (المعمول والتويتات والكرابيج) وهي حلويات ومعجنات شامية، والصغار يقبلون أيدي الكبار، ويمدون أيديهم لتلقي العيديات[xxxii].يخرج الوالي ممتطياً صهوة جواده لصلاة العيد في فضاء فسح قرب القصر، ويخرج من قصره في موكب حافل مهيب يتقدمه الجند وحاملو الأعلام، ويركب الوالي فرسه ممسكاً بالعصا متقلداً بالسيف مرتدياً أبهى الملابس من الثياب البيضاء المطرزة بخيوط الذهب، واضعاً فوق رأسه العمامة البيضاء المزينة بأنواع الذهب والجواهر، تظله المظلة التي يمسك بها أحد أمراء الجند من خاصته، وعند بلوغه مكان الصلاة يكون في استقباله رجال الدين وكبار رجال الدولة، فينزل من فرسه ليؤم الناس للصلاة، ثم يخطب خطبة العيد[xxxiii]، فكان ولاة مدينة دمشق يقومون بالأسلوب نفسه الذي يحدث بالقاهرة في العصر الفاطمي[xxxiv]. وكان عادة أهل مدينة دمشق في أول يوم العيد وبصلاة عيد الفطر أن ((يقف لهم أئمتهم كاشفين رؤوسهم، داعين إلى ربهم، التماساً لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل، وبحجيج بيته الحرام متوسلين، إلى أن يسقط قرص الشمس، ويقدّروا نفر الحاج، فينفصلوا باكين على ما حرموا ذلك الموقف العظيم بعرفات، وداعين إلى الله فعلهم ذلك))[xxxv]، وكان يتوجه قسم من أهل الشام ومنهم أهل مدينة دمشق إلى القدس في موسم الحج وهم الذين لم يستطيعوا الذهاب إلى مكة وهناك يضحون ضحية العيد[xxxvi].وبعد الصلاة يذهب الناس في مدينة دمشق وما حولها إلى المقابر، لأنهم أدوا في الصلاة حق الله، والآن يؤدون حق الوفاء للأسلاف[xxxvii]، من جهة أخرى يستغل العيد للخروج إلى المتنزهات المجاورة والبساتين ومنها الربوة والميدان الأخضر وغيرها، للتمتع بأيام العيد السعيد بجوار المزارع الجميلة من أجل تحقيق النزهة والمتعة[xxxviii].ونظام هذين العيدين متشابه، إلا في أمرين لم يتوفرا في عيد الفطر، وهو نظام الفطرة في أول أيام عيد الفطر، حيث كان يستبدل به نظام الأضحية في عيد الأضحى[xxxix]. لم يقتصر احتفال أهل مدينة دمشق بالعيدين (الفطر والأضحى)، بل جعلوا من كل مناسبة عيداً، عيد المولد النبوي، عيد المحمل وكسوة الكعبة، فضلاً عن عيد غدير خمُ، وليلة العاشر من محرم، وليلة الإسراء والمعراج، كما أنهم شاركوا أعياد المصريين كعيد نوروز ووفاء النيل، وشاركوا النصارى أعيادهم كعيد الشهيد والعذراء، والشعانين والحريق وغير ذلك[xl].وهو أهم الأعياد التي يحتفل بها المسلمون- عادة- منذ عهد الرسول(ﷺ) [xli]، إذ يبدأ بصلاة العيد، ثم

يتلوها نحر الأضاحي، تقرباً إلى الله تعالى[xlii]، ثم يقيمون الولائم، ويتصدقون بأنواع الصدقات على مستحقيها، ومن صور الاحتفال بهذه المناسبة تحضير الملابس الجديدة، وصنع الحلوى[xliii] بصورها المختلفة.

٣. شهر رمضان: تمتع شهر رمضان بفضائل كثيرة؛ إذ فيه نزل القرآن، ولهذا كانت له مكانة خاصة تتصل بكرامته الدينية المقدسة، إذ يتم الاستعداد لهذا الشهر الكريم بتهيئة مستلزمات الطعام المناسب، وأنواع الحلوى التي يتناولها أهل دمشق في كل يوم خلال شهر رمضان، لما عرف عنهم من حسن التدبير والمهارة في هذه الأمور، فقد ذكر ابن بطوطة هذا بقوله: (ومن فضائل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة، فإن كان من الأمراء والقضاء والكبراء، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوق، صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية، فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم، أو في المسجد، ويأتي كل أحد بما عنده، فيفطرون جميعاً)[xliv]، ومن متابعتنا للنص الذي أورده ابن بطوطة، نستخلص فضائل شهر رمضان، وأثرها في إشاعة التعاون بين أفراد المجتمع الواحد، متمثلين دعوة الإسلام للتكافل الاجتماعي، وقد بدا لنا ذلك من خلال الموائد المختلفة لعموم الطبقات الاجتماعية في دمشق.وتزود الأسواق في هذا الشهر بالبضائع اللازمة له لتلبية حاجات الناس منها، وتعلق الدلالات التي تعبر عن احترام شهر رمضان وقدسيته، فهذا سوق الشماعين في دمشق خلال هذا الشهر المبارك[xlv]، يعلن عن احتفاله بتعليق الفوانيس على واجها المحال وجوانب الحوانيت[xlvi]، تحية لهذا الشهر المبارك. وكانت من عادات أهل دمشق، أنه إذا ختم أحد أبنائهم القرآن الكريم في هذا الشهر، تقام له حفلة يحضرها القاضي وجماعة من شيوخه، بعدها يقوم الصبي خطيباً بين الحاضرين معبراً عن فرحته وشكره لهم، ومن مظاهر الاحتفال في هذه المناسبة تقديم الفاكهة الرطبة واليابسة، وتوقد الشموع الكثيرة التي توضع في وسط المسجد، وترج القناديل المحيطة بمحراب المسجد، والمثبتة بمسامير علقت عليه الشموع[xlvii]، وتستمر حفلة ختم القرآن الكريم على هذا النحو، إذ يرتدي الصبي كسوة مجزية مختلفة الألوان، ويجلس إلى جوار محراب المسجد، ليحضر شيخه، ليقيم صلاة التراويح بالحاضرين، من الرجال والنساء والصبي في المحراب، وحوله الشموع، فإذا أخرج من المحراب يستقبله سَدَنَة المسجد، ويوصلونه إلى المنبر، فيستوي مبتسماً، ويشير إلى الحاضرين مسلِّماً، ويجلس بين يده القراء، حتى إذا أكملوا جزءاً من القرآن الكريم يقوم الصبي، ويلقي الخطبة بين يديهم على درجات المنبر، وقسم من الحاضرين يمسكون الشمع بين أيديهم، ويرفعون أصواتهم : يا رب يا رب، عند كل فصل من فصول الخطبة حتى ينتهي من القراءة، فينزل الصبي، ويخص القاضي في مثل هذه الحفلات بطعام حافل وحلوى[xlviii] تكريماً له، وإسهاماً من المحتفلين بمشاركته. وفي شهر رمضان تنهض المؤسسات الخيرية والأفراد بتوزيع الأطعمة والحلوى بين أفراد المجتمع، والفقراء منهم بصورة خاصة، فقد روي عن المدرسة الحنبلية في الصالحية، كانت تقوم بتوزيع الطعام في هذا الشهر[xlix].وقبل العيد بيومين تعلن الفرحة فيه بخروج رجل بصورة مضحكة، يرتدي قلنسوة طويلة في أعلاها ذنب، وفي يده دف يدق عليه، وأمامه حمار مزين بالخرز الملون، ومعصب الرأس بالمناديل الملونة، فيدور على هذه الهيئة بالأزقة والشوارع، عارضاً ألعابه ورقصه، ويسمونه (جحش العيد)[l]، وفي آخر يوم من شهر رمضان تقام في باب البريد- أحد أبواب الجامع الأموي- مأدبة حافلة[li] بأنواع الأطعمة. والجدير بالذكر أن دمشق تصدر إلى تجار مصر الذين يستقبلون هذه البضائع في شارع باب النصر، ليعرضوها للمستهلكين، وهي مختلفة ومتنوعة، تشتهر بها دمشق، مثل الزيت والصابون والجوز واللوز والفستق... الخ. وفي شهر رمضان يستمع أهل دمشق إلى المواعظ والأدعية في المساجد، في الليل والنهار، وهو حال يعلن عن توجههم إلى الله تعالى طلباً للغفران والتوبة، ومن مظاهر تكريم شهر رمضان والصائمين فيه، أن نور الدين زنكي أمر بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر، لإيقاظ الصائمين، وقد خصص لصاحبها أجراً كبيراً[lii].

٣- عيد النوروز[liii]: هو بداية السنة الفارسية الجديدة، وكانت مدينة دمشق تحتفل بهذا العيد الذي يعد من المواسم المهمة، فأول أيام السنة الشمسية كان الناس يتبادلون فيه الهدايا، لكن أبطل هذا العيد لفترة من الفترات، وأعاده العباسيون والفاطميون[liv]، ويعد من المواسم القديمة، اتخذها الفرس لأحياء العام الجديد، ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل أي عند ابتداء فصل الربيع، فاتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف، ويختلفون بعيد النوروز، الذي يسمى عندهم بعيد الفصح[lv].وفي عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م) أمر بتأخير النوروز في عموم اليوم لأنه تأثر من شكاوى المزارعين حيث جمعوا الخراج قبل نضوج الغلات، غير انه لما مات المتوكل ولي المستنصر أبطل ذلك، وأمر بجمع الخراج في الوقت الذي كان يجمع فيه أولاً، ولما ولي الخليفة المعتضد أمر بتأخير النوروز من جديد[lvi].في آخر العام يحتفلون بعيد المهرجان ويسمونه (روز مهر)، معناه محبة الروح، وكان من أكبر أعيادهم، ويوافق هذا العيد أول أيام الشتاء، وكانت تخلع ملابس الشتاء على القواد وكبار قواد رجال الخلافة، ويعد يوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام العيد ويسمونه (رام روز) معناه المهرجان العظيم[lvii].في العصر الفاطمي أصدر الخليفة الحاكم بأمر الله أوامره بمنع النصارى في مدينة دمشق من الاحتفال بالنوروز، وحرّم الألعاب التي تقام عند الاحتفال بهذا العيد، واستمر

ذلك في عهد الخليفة المعز لدين الله الذي نادى وهدد بعقوبة كل من يخالف أمره، وكف العامة عن مثل هذه السماجات لان مثل هذه الأعمال التي يقوم بها العامة، يوم النوروز قد زادت عن حدها، وتأذى الناس، وكثرت شكواهم[lviii].لكن ابنه الخليفة العزيز بالله أعاد الاحتفال بهذا العيد، وكانت العادة أن تقدم الهدايا من الثياب الجديدة والفاكهة الموسمية كالموز والتمر والرمان إلى بعض الناس المحتاجين[lix].يذكر أحد الرحالة الذي زار مدينة دمشق ومصر آنذاك: ((ما رأيت أجمل من أيام النيروز والغطاس[lx] والميلاد والشعانين والمهرجان وغير ذلك من أيام اللهو التي كان يسخون فيها رغبة في الترف، ذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير إلا خرج متنزهاً، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والمماليك المحررات، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون))[lxi].

٤- عيد رأس السنة الهجرية:يعد من الأعياد الدينية، إذ تعود أهل مدينة دمشق بالاحتفال بهذا العيد، فكان بعضهم يذهب إلى قصر الوالي للتهنئة بالعام، في حين كان من العادات الأخرى هو نشر الزهور، ويرجع أصل هذه العادة إلى الأعياد التي كانت يحتفل بها في المدينة وتعود الفاطميون أن يضربوا نقوداً تذكارية في بداية هذا العيد تسمى (الغرة) وهي دنانير رباعية، ودراهم خفاف مدورة يوزعها على كبار رجال الدولة، وترسل قسم منها إلى البلاد والولايات المجاورة[lxii].

٥- ليالي الوقود الأربع[lxiii] (ليالي رجب وشعبان):هي الليالي التي تسبق أول ومنتصف شهري رجب وشعبان، وتعد من أشهر المواسم التي اختصت بها مدينة دمشق خاصة والدولة الفاطمية عامة، منها تضاء جميع المساجد والشوارع[lxiv]، ويشق فيها موكب عظيم يتقدمه الشهود، وتوزع فيه الحلوى، ويركب الوزير أو القاضي في موكب يطوف بجميع الجوامع، فتفرق الهدايا والحلوى، أمامه جماعة يحملون الشموع والقناديل والبخور في مجامر الذهب والفضة[lxv].يصف القلقشندي موكب الوقود في أول رجب حيث تحمل الشموع إلى دار القاضي ليلة مستّهل رجب، ينتظرون ركوبه، فيركب من داره بهيئاته، وأمامه الشمع الموقود والمحمول إليه مع المندوبين لذلك يحملون من كل جانب، فمنهم من يحمل ثلاث شمعات إلى اثنين إلى واحدة ويمضي الناس في مدينة دمشق فيصلوّن صلاة المغرب في الجامع، والخطباء تخطب في المساجد[lxvi]، والمؤذنون بالجوامع يذكرون الله تعالى ويدعون للولاة والأمراء[lxvii].يتضح مما سبق ان عادات الناس في الأعياد هي واحدة في المدن الإسلامية إلى حد ما، حيث تعلق الزينة، ويقوم الناس بتوزيع الهدايا والحلوى وغيرها، ويقدمون الولائم ويتصدقون على الفقراء، وكانوا يبالغون في هذه المناسبات في التوسعة مع العلماء وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين، في حين يبادر الكثير لزيارة الأقارب من باب صلة الرحم أو الذهاب إلى المتنزهات، وهذا يعني أن ولاة مدينة دمشق يقومون بالاحتفال في ولآياتهم على الأسلوب نفسه الذي يحدث في القاهرة خلال العصر الفاطمي[lxviii].تختص ليلة النصف[lxix] من شعبان بميزة أخرى ذات طابع ديني خاص فيها، إذ يقرأ أهل الشام – ومنهم أهل مدينة دمشق – بعد صلاة العشاء سورة ياسين ثلاث مرات، وبعدها يلقي الإمام دعاء يتوجه إلى الله سبحانه، ويذكر شيخ الربوة ما يوفد في الجامع فيقول: ((توفد الناس في ليلة النصف من شعبان اثنا عشر قنديل، بخمسين قنطار مدينة دمشقياً غير ما يوفد في المدارس والترب والخوانق والربط))[lxx]، وإننا إذ ننقل هذا النص نتحفظ على ما ذكر فيه مما يوقد من مصابيح، لان واقع الحال لا يؤيد ذلك لكثرته ولكنه يعطي صورة عن ما يوقد من مصابيح، وكان الناس تتبع التعاليم كالصيام في بعض أيام شهري رجب وشعبان، لذلك كان يختلفون بهذه الليالي الأربعة، كما يحتفلون بشهر رمضان[lxxi].وهناك ليال أخرى يحتفل فيها باليوم السابع والعشرين من رجب بقراءة قصة الإسراء والمعراج، ثم يتخلل ذلك قيام الأطفال بتوزيع الحلوى، فضلاً عن الأطعمة الشهية، وهذه الاحتفالات كانت موجود في عموم مدينة دمشق، ويبدو أن الفاطميين أكدوا عليها وعدوها من الأعياد الرسمية، واختفت بمجيء الزنكيين ومن بعدهم الأيوبيين والمماليك، فأقتصر الاحتفال على الجانب الشعبي، ولم يكن له صفة رسمية[lxxii].وهكذا نجد أن الكثير الأعياد والمناسبات التي أشرنا إليها ما هي إلا امتداداً لبعض العادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع العربي، وقد تلاءمت هذه المناسبات مع طبيعة المجتمع الشامي لاسيما والتعددية التي كان يتميز بها، ويلاحظ أن الكثير من تلك العادات والتقاليد التي تخص المناسبات مازالت مستمرة إلى يومنا هذا دلالة على تأصل هذه العادات في المجتمع الشامي لاسيما في مدينة دمشق.

الحفلات العائلية: وتنقسم إلى:-

١- الختان:هو تقليد قديم ثبته الإسلام حتى أضحى سنة متبعة في كل المذاهب الإسلامية، بصفته مظهر من مظاهر النظافة والطهارة والوقاية الصحية لما أشارت إليه الآثار والمرويات في الحديث والسنة، والعادة إن المسلم يفضل أن يختن ولده مع بقية الأطفال الآخرين، ونفقاتها تختلف من شخص إلى آخر[lxxiii]، ويعد من أهم الحفلات العائلية، ويدعى إليه الأهل والأصدقاء، وكان المدعون يقدمون النقود لأهل الطفل بطريقة تختلف من مدينة لأخرى من مدن العالم الإسلامي، وفي العادة أيضاً أن يتم الختان في سن مبكرة، وقد يكون بعد الولادة بأيام، إذ تقام حفلة بالمناسبة يحضرها الأقارب والأصحاب، وتقدم الأسمطة الزاخرة بكل أنواع الطعام، ثم يزين

الغلام بالحلي ويركب على دابة ورائه رديف يقال له العريف، يطاف في الشوارع يتقدمهم كبير مشايخ الطرق، مكللاً بطيلسان[lxxiv] أحمر في يده عقافة[lxxv]، يسير بها على جماعته وهم سائرون أمامه يحملون الأعلام ويضربون في الدفوف والطبول[lxxvi].يرافق الموكب طائفة من المضحكين يلبسون الخوذ على رؤوسهم ويحملون السيوف والتروس، ويبارزون بعضهم بالسيوف والرماح ويسيرون عادةً وراء الجموع، وفي آخر الموكب رجل يقود جملاً ويلبس لباس عرب البادية وبيده صنوجاً[lxxvii] يرقص حتى يصل إلى المختون ويسمى الموكب (عراضة)، وبعد الانتهاء من الطواف، يعودون إلى المنزل، وتتلى قصة المولد النبوي الشريف وفي ختامها يختن الطفل[lxxviii]، ومن المتعارف عليه أن يهدى في مثل هذه الاحتفالات لصاحب الطفل من الأهل والأصدقاء شيئاً من السمن والأرز والغلات ويكون ذلك ديناً عليه يعيده إليهم في الحفلات المماثلة[lxxix].حفلات الطهور في بلاد الشام على نوعين: عامة وخاصة، فالعامة تجرى تحت إشراف شيخ الجامع، لتطهير اليتامى الموجودين بمدينة دمشق كل عام، وكانت تبدأ بتحضير الأعلام التي يأخذونها من مساجد مدينة دمشق[lxxx]، أما حفلات الختان الخاصة، فكان والد الطفل المختون يدعو في يوم محدد كثيراً من أصحابه وعدداً كبيراً من أعيان المدينة، وتسبق حفلة الختان تهيئة ثياب جميلة خاصة للطفل كثياب العروس [lxxxi]، ليظهروا بأبهى شكل.وقد تتزامن حفلات الختان عند بعضهم بمناسبات الأعياد والأفراح، يؤيد ذلك ما روي عن نور الدين أنه ختن ولده إسماعيل في عيد الفطر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، إذ أقيم احتفال كبير (وأخرج كثيراً من الصدقات، وكسوة للأيتام، وختن منهم جماعة، وزين البلد...)[lxxxii]، ويضيف أبو شامة بهذا الشأن بقوله: (واحتفلنا لهذا الأمر، وغلقت محال دمشق أياماً)[lxxxiii]، وقد تكون مناسبات الختان مناسبة للشعراء في نظم قصائدهم، وهذا ما تبين لنا من إلقاء عماد الدين الأصفهاني قصيدته بهذه المناسبة حيث جاء فيها:

عيدان ، فطر وطُهر — فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه — حقّاً هناء وأجر
وفيهما بالتّهاني — رسم لنا مُستمرُّ
طهارة طُلب منها — أصل وفرع وذكر
نجل على طُهر نام — زكاله منك نحر
محمود الملك العادل — الكريم الأغرُّ
وبابنه الملك الصّالح — العُيُون تقرُّ[lxxxiv]

٢- الزواج: اتبع الدمشقيون كتاب الله وسنة رسوله في زواجهم، كغيرهم في المدن الإسلامية، ويعد الزواج هو عماد الأسرة الثابتة التي تلتقي الحقوق والواجبات فيها، تحت سلطان الدين ويشعر كل من طرفيه بأنه ربطة مقدسة وتسمو به النفس البشرية، ويعد القوام الأول للأسرة، والواحدة الأولى لبناء المجتمع، وحفلة الزواج تعد من أشهر الحفلات العائلية ويحاول الناس في هذه المناسبات أن يظهروا في الغنى أكثر مما عندهم، ويستأجروا الزينة والآلات والفرش[lxxxv].أطلق عند الطبقات الشعبية على المرأة المعروفة بـ (الخطابة) دور كبير في إنهاء مهمة الخطوبة، إذ كانت تتظاهر ببيع العطور والبخور وغيرها من اللوازم التي تحتاجها المرأة، وبذلك تباح لها دخول البيوت، والاطلاع على أسرار الحريم، في الأوقات المختلفة[lxxxvi]، في ذلك توحد جهودها مع عائلة الرجل الذي ينوي الزواج، والراجح أن الفتاة تؤهل للزواج في سن الخامسة عشر إلى الخامسة والعشرين، وربما كان تكليف الفتاة بتقديم الشراب والحلوى للزائرين طريقة معروفة للإطلاع على مواصفاتها الجمالية ومهاراتها البيئية، وأحياناً يتم التعرف على حقيقة مواصفات الفتاة الجسمية والجمالية بمرافقتها إلى حمام النساء[lxxxvii].

تلك هي الخطوات التي يقطعها الرجل بمساعدة أهله ومعارفه، إذ يقدم على خطبة الفتاة لكي تتحقق القناعة في اختياره، ومن جهة أخرى يسعى أهل الفتاة المخطوبة لمعرفة أخلاقية الخاطب، من خلال الاستفسار على سلوكه وأصالته، وقدرته المالية ومنزلته الاجتماعية من منطقته وبين معارفه[lxxxviii]، وما أن حصلت القناعة عند الفتاة، حتى تتم عملية الخطوبة بشكل رسمي بوصول أهل الفتى إلى دار الفتاة المخطوبة للاتفاق على مستلزمات الزواج وتكاليفه ونفقاته من المهر وغيره، فإذا اتفق الطرفان على هذه الأمور تقرأ سورة الفاتحة إيذاناً بموافقة الطرفين على الموضوع، وحتى يعرف الآخرون إلى ما وصل إليه الطرفان، أهل الزوج وأهل الزوجة في الموافقة بزواج ولديهما يتم إعلان الأمر بالجامع الأموي، من خلال المأذنة المعروفة بمأذنة العروس، بعد أن يتم تبادل خواتم الخطوبة ويقرر وقت عقد حفلة العقد[lxxxix] الذي يتم في الجامع الأموي[xc].ثم يستعد الطرفان لاستقبال ليلة الزفاف التي تتقدمها ليال يسمونها (التعاليل) مناسبة لاجتماع الموسيقيين والمطربين وتكون المرأة قد تزينت بزينتها ولونت يدها، إذ تعرف بليلة النقش، وفي ليلة الزفاف[xci] تقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء تعرف بوليمة العرس، وهما وليمتان إحداهما للنساء وتقام في بيت العروس، وأخرى للرجال وتقام في بيت العريس، وفي صبيحة ليلة الزفاف يقصد الزوج أصدقاءه في موكب حافل بالموسيقيين وهو يتوسط اثنين من أقرانه يقال لهم (سخاديج)[xcii]، في حفل بهيج من الضرب بالطبول والدفوف وزغاريد النساء، ويتقدمهم تشكيلات

من المنشدين الذين يحملون المصابيح السرجة، وهم يغدون وينشدون الأهازيج ذات الصلة بالمناسبة، حتى يصل الجمع إلى بيت الزوجية لتستقبل الزوجة زوجها، ويركب العريس على حصان، والعروس على هودج، وتسير وراءهما البغال المحملة بالهدايا، ومن باب مشاركة أصدقاء الزوج صديقهم في هذه المناسبة إنهم يقيمون له الولائم لأيام متوالية تسمى (الطبخات)[xciii]، وفي اليوم الخامس عشر من تاريخ الزواج يقيم الزوج وليمة لأهل الزوجة تحتوي على أنواع مختلفة من الأطعمة تسمى وليمة الخامس عشر[xciv].إن تعدد الزوجات كان بوجه عام تعاقبياً أكثر مما كان تزامنياً، فإن الزوجات الشرعيات يتقبلنه كأمر عادي، وغالباً ما تفاخر الضرائر بعدد أولادهن[xcv]. كان لمدينة دمشق أعياد متعددة، منها ما كان له مواعيد ثابتة، كخميس البيض[xcvi]، والأعياد الزراعية كعيد الزبيب[xcvii] وعيد الجوزة[xcviii] وعيد البربارة وهو وقت الأمطار، وعيد الصليب وهو وقت قطاف العنب، وعيد العنصرة وهو موسم الحر، وهذه المناسبات كان يحتفل بها أهالي مدينة دمشق أيام الفاطميين[xcix].وهناك احتفالات العزاء، حيث كان بعض سكان مدينة دمشق يحتفلون بوفاة بناتهم احتفالاً خاصاً، فكان يدعون الناس إلى الطعام الغداء في اليوم الذي تدفن فيه ابنتهم العازبة، ثم ينصبون لها منصة تجلس عليها وكأنها حية، ويلبسونها ثياباً مثل ثياب العرائس، ويحضرون لها المنشدات والمغنيات، ليغنين لها كأنها في يوم عرسها ثم يدفنونها[c]، وهناك احتفالات بعد تساقط الثلج[ci].وإذا كانت هذه الصور التي ذكرناها تتعلق بحفلات الزواج ومقدماته، يتصل بالطبقة العامة، فإن لطبقة الحكام والأمراء مراسيمهم الخاصة، في هذا المعنى، تبدو فيها المناسبة أكثر أبّهة ورونقاً وأسلوباً، بما يتناسب ومقامهم الاجتماعي، ففي سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م، خطيب الملك العزيز ابنة عمه الملك العادل، وحضر ذلك قاضي القضاة محيي الدين بن زكي الدين[cii] وجميع عدوله[ciii]، وكتب عماد الدين الكاتب خطبة العقد، والتي تعد مثالاً طريفاً لخطبة العقد في العهد الأيوبي؛ إذ جاء فيها : (الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً، وشرّع النكاح، ووصفه صلة للأرحام وبرّاً، وشد به أوزاراً، ورفع به قدراً، وأطلع بسناء سنته في العالم فجراً، وأجرى به أجراً، نحمده على أنعمه التي تجلت لعيون مُجتليها بيضاً غراً، وأياديه التي ملأت الأيدي حوافل عزرا، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة تتخذها يوم القيامة ذخراً، ونعدها يوم الفزع الأكبر جنة وستراً، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً، وأسماهم وأسناهم في الدنيا والآخرة، الذي بعثه إلى الخلق كافة عرباً وعجماً، وبدواً وحضراً، وبين لهم مناهج الهدى إيجاباً وإباحة وندباً وحظراً، فقال ﷺ : (تناكحوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة)، وكفى بالنكاح في تحقيق مباهاته فخراً، صلى الله عليه وسلم وعلى آله صلاة تجمع لهم شرف الدنيا والآخرة، وكان من قضاء الله وقدره النكاح المسطور في هذا الكتاب، الذي فاح في مناشق الأولياء نشراً، ولاح في مشارق الآلاء يسراً، وجمع في سماء المعالي للأيام والليالي شمساً وبدراً، وأمر بأحكام عهده الدين أمراً وسيراً بإبرام عقده للدولة سراً، قرنه الله بالميامين والبركات التي تتأيد دهراً، وتتخلد عصراً)[civ].ثم قرأ كتاب الصّداق وعقد العقد، بحضور الملك الظاهر صاحب حلب، كما تكرر مثل هذا عند خطوبة الملك الظاهر من ابنة عمه؛ إذ جرت مراسيم فاخرة ابتداءً من دخول القاضي بهاء الدين بن شداد، مبعوث الملك الظاهر إلى عمه الملك العادل، ومعه ثياب كثيرة، كخُلع لأرباب الدولة وغيرها، وكان الصداق خمسين ألف دينار، فضلاً عما نثره الناثرون على الشهود والقراء، وجهز الملك العادل ابنته بجهاز خاص، وصفه ابن واصل بقوله (وقدم معها من القماش، والآلات، وأنواع المصاغ، ما يحمله خمسون بغلاً، وثلاثمائة جمل، ومن الجواري والوصائف[cv] والإماء والحرائر... ما تحمله مائة جمل)[cvi].وذهبت الخاتون إلى دارها، فاستقبلها المالك الظاهر و(مشى لها عدة خطوات، واحترمها احتراماً كبيراً، وقدم لها خمسة عقود جوهر، قيمتها خمسون ألف درهم، وعصابة مجوهرة ليس لها نظير، وعشرة قلائد من العنبر المذهب، وخمساً غير مذهبة، ومائة وسبعين قطعة من الذهب والفضة، وعشرين تختاً من الثياب المختلفة الألوان، وعشرين جارية، وعشرة خدم)[cvii]، وفي ذلك أنشد شرف الدين راجح الحلي[cviii] يهنّئ الملك العادل بقصيدة منها :

نعم هي نُعْمى بشرها أوضح البشرى فما عُذْرُ مَنْ لم يخترع مدْحة عُذْرا
سما قَدْرُ اليوم عن موقفِ به نصوغ حلى النّظم أو تنظيم النثرا[cix]

3- ولادة الطفل : يحتفل أهل دمشق بولادة الطفل الجديد بأساليب مختلفة، تتناسب ومقدرتهم المالية ومنزلتهم الاجتماعية، وتبدأ بعد ولادته مباشرة، فإن كان غلاماً صلّت أسرته على نبينا محمد(ﷺ)، وإن كانت بنتاً ترضّت على السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، ثم يدهن ظهر الطفل بالزيت، لإزالة الشحوم، وقطع السُّرَّة، وتُزيِّنه بالملابس المعدّة له، حتى يقدم بعد ذلك إلى أحد أقربائه من المشهود لهم بالصلاح، فيؤذن في أذنيه الآذان الشرعي، ثم يسمى من قبل ذويه. بعدئذ، يبدأ الاهتمام بأم المولود؛ حيث يقدم لها الحلوى المصنوعة بالجوز، ليكثر لبنها، كما يقتصر شرابها على ماء الحمام فيه أصول البنفسج لمدة أسبوع، كما يرسل لها الأقارب والأصدقاء موائد كبيرة تشمل على الحلويات، مثل الزلابية وأباريج السكر[cx].وفي اليوم السابع، يقيم أهل المولود وليمة كبيرة حافلة بأنواع الحلوى؛ قوامها الدبس والشمرة[cxi]، وقد يحضر تلك الوليمة فتيات يغنين ويرقصن للنساء،

ومطربون من الرجال، ومن عادة تلك الولائم أن يصطحب كل مدعو هدية يقدمها للأبوين؛ بعضها مأكول وبعضها الآخر ملبوس، وثالثة عبارة عن مسكوكات ذهبية تعلق في قلنسوة الطفل تسمى (تهنايـة)[cxii]، وتلبس أم المولود الملابس الجديدة، ويطاف بها بأنحاء الدار في موكب كبير تحيط بها الشموع من كل جانب[cxiii]، والقابلة تحمل المولود، أمامها امرأة تحمل طبقاً فيه شيء من مخلوط الملح، وشيء من الحبوب، تنثره يميناً ويساراً، هذا كله عدا إحراق البخور اتّقاءً لحسد الناس[cxiv].وبعد أربعين يوماً من الولادة، تؤخذ النّفساء إلى حمام النساء، حيث ينفرد لها حمام في بعض الأحيان، وعند دخولها يدهن جسمها بالمرنوش القرصي والخزامى المغربية، وتجلس نحو ساعة، وبعدها تُغسَّل، وتخرج[cxv]، ويتخلل ذلك تناول وجبة الغداء، والذي يعرف بغداء الأربعين، وهذا يختلف باختلاف مكانة الأسرة ومكانتها المادية، ولكن بصورة عامة تشمل على بعض أنواع الطعام من زيتون وجزر وليمون وبرتقال[cxvi]، وعند بلوغ الطفل الخامسة من العمر، يرسل إلى الشيخ أو المدرسة[cxvii].ويشارك المسلمون النصارى في بعض أعيادهم توثيقاً لصلاتهم الاجتماعية، والتي يحرص بها المسلمون على المؤاخاة مع أهل الذمة، ومن هذه الأعياد ما يعرف بعيد الخميس، الذي يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم، حيث يسبق هذا الاحتفال عيد الفصح بثلاثة أيام، وكان خميس العهد من الأعياد التي احتفل بها في أيام الفاطميين، ولم يتبين لنا استمرار الاحتفال عبر العهود التالية، وإن كان المصريون يسمونه بخميس العهد، فإن أهل الشام يسمونه خميس الأرز، وخميس البيض، وهذا يشير إلى انتشاره في الولايات الإسلامية، ولعل ذلك بسبب امتداد سلطة الفاطميين إلى بلاد الشام[cxviii]، كما ويوجد أعياد أخرى ألغيت فيما بعد، منها عيد النّوروز[cxix] وعيد المهرجان[cxx].

٤- يوم عاشوراء:يعد شهر المحرم أول شهر مبارك يجلهُ العرب، ويشير (الشيخ الصدوق)[cxxi] إلى أن في أول يوم من المحرم دعا زكريا "عليه السلام"، وفي عشر من المحرم وهو يوم عاشوراء أنزل الله توبة آدم "عليه السلام"، وفيه استوت سفينة نوح "عليه السلام" على الجودي، وفيه عبر موسى "عليه السلام" البحر، وفيه ولد عيسى بن مريم "عليه السلام"، وفيه أخرج الله يونس "عليه السلام" من بطن الحوت، وفيه أخرج الله يوسف "عليه السلام" من بطن الجب، وفيه تاب الله على قوم يونس "عليه السلام"، وفيه قتل داود "عليه السلام" جالوت[cxxii]، وكان العرب يجلُّونهُ منذ القديم[cxxiii]، فيعد يوم حزن عام، تعطل فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجوامع ليلقوا الأناشيد في رثاء الإمام الحسين "عليه السلام"، وفي نفس اليوم[cxxiv] يفرش سماط يسمى "سماط الحزن" في بهو بسيط، يقدم عليه العدس والملوحات وخبز الشعير والمخللات والأجبان والألبان وعسل النحل، فإذا قرب الظهر وقف صاحب المائدة وأدخل الناس للأكل منه[cxxv]، وإذا انتهى السماط أغلق الباعة حواشيهم إلى ما بعد العصر[cxxvi].من مظاهر احترام المسلمين في مدينة دمشق وفي البلدان الأخرى لهذا اليوم أنهم كانوا يصومونه، فقد روى عن الرسول انه لما هاجر إلى المدينة، رأى اليهود يصومون هذا اليوم، فسألهم عنه، فأجابوه أنه اليوم الذي اغرق فيه الله فرعون وآله، ونجى موسى ومن معه، فقال الرسول: ((نحن أحق بموسى منهم)) فصام وأمر الصحابة بصومه[cxxvii].ظل أهالي مدينة دمشق يحتفلون بذكرى هذا اليوم في العهد العباسي، ويلبسون ألوان حزينة، فغدا يوم عاشوراء عيداً من أعياد الفاطميين والبويهيين الذين أرغموا أهل السنة على الاشتراك في أعياد الشيعة، وعّد الفاطميون هذه المناسبة من أعيادهم الحزينة، فيجتمع الشعراء لينشدوا الرثاء في أهل البيت، ويقدم الفاطميون لهم الهدايا والجوائز[cxxviii]، وأمر معز الدولة أحمد بن بويه الناس بتعطيل الأسواق في هذا اليوم من سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م، ومنع الطباخين من طهي الطعام، ونصب القباب في الأسواق وعليها السواد، وأقيمت المآتم في المساجد والدور[cxxix].

٥- المآتم:كان من عادات المسلمين بمدينة دمشق أن يجمعوا موتاهم قرب مكان سكناهم وكان الفقراء يدفنون في ظل أي مقام محلي، بينما كان الأغنياء يفضلون دفن موتاهم في مقامات رسمية[cxxx]، فإن حضر أحدهم الوفاة يعلن ذلك في مأذنة المدينة، فإن كان من الأمراء أو العلماء أو من أرباب الوظائف الكبرى والتجار، بينما ينتشر خبر وفاة العامة بين الناس حسب الصلة أو المعرفة بينهم[cxxxi].والمعروف عن المآتم في مدينة دمشق إنها تقام للميت جنازة لا تختلف كثيراً عن مآتم العبادات الأخرى، وتقام سهرة حول جثمان الميت، تلقى خلالها الآيات القرآنية، ثم يغسل ويطهر الجثمان، ثم يكفن في كفن شرعي[cxxxii]، يكون الكفن واحداً أو اثنين وهو من الكتان ويمنع استخدام الحرير بالنسبة للرجال ولكن النساء تكفن بأكفان أكثر من الرجال[cxxxiii]، ليس فيه بهرج ولا خروج من كفن السلف الصالح، تشيع إلى أحد الجوامع حيث تقام صلاة الجنازة عليه[cxxxiv]، قال ابن جبير: ((يمشون أمام الجنائز يقرءون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد لها النفوس تنفطر شجناً وحناناً يرفعون أصواتهم بها فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان))[cxxxv]، ويحمل إلى المقبرة فوق المحمل الذي غسل عليه، ثم يسير أعيان الدين، وسط التراتيل الشعرية الدينية، لكن أغلب الأحيان كانت تتلقى على جنائزهم في جامع قبالة المقصورة، فإذا انتهوا قطعوا القراءة ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها[cxxxvi] إذا كان المتوفى من عامة الناس، في حين يستمرون في قراءة القران في موضع الصلاة عليه إذا كان المتوفى من عليّة القوم، فيما روي أن المتوفى من هذه الفئة يقصد به إلى الجامع الأموي، وربما يجتمعون للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بإزاء باب البريد، فيصلون أفراداً وأمامهم ربعات من القران يقرؤونها، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء وأعيانهم، ويحلونهم

بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين[cxxxvii].يلقب الذين يحضرون عزاء المتوفى من عليَّة القوم ألقاباً متعددة تكريماً واحتراماً وقد علق على ذلك ابن جبير بقوله: ((فتسمع ما شئت من صدر الدين، أو شمسه أو بدره أو نجمه أو قرينه أو بهائه أو جماله أو فخره ... إلى غاية من الألفاظ الموضوعة، وتتبعها لاسيما الفقهاء بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الإسلام وفخر الشريعة وشرف الله ... إلى ما لا نهاية من الألفاظ))[cxxxviii]، ثم يتوجه كل واحد حسب مكانته لتقديم التعزية وعند نزول المتوفى إلى قبره تقوم جماعة بقراءة سورة ياسين ثم تبارك ثم الإخلاص ثم المعوذتين ثم الفاتحة وأوائل سورة البقرة طيلة مراسيم الدفن وبعدها يهال التراب على المتوفى وعندها يصيح المؤذن في الناس، غفر الله لعبد جلس فيجلس الجميع يتصنتون حتى ينتهي أحد الشيوخ من تلقين الميت بالتوحيد والدعاء والغفران وعلى العموم كان الناس تفضل دفن موتاهم عند الأئمة الصالحين والشهداء[cxxxix]، ومن المراسيم المتصلة بهذا المعنى بعد الانتهاء من مراسيم الدفن، أن يجتمع الأهل والجيران والأصدقاء بعد صلاة العشاء في محل يستمعون إلى قراءة القرآن ويتصدقون على الفقراء المعوزين بالمال والطعام والكساء، ويستمر هذا التجمع ثلاث ليال تعرف بالصماحية[cxl]، والراجح أن الميسورين من الأغنياء ومن يتمتع بالقدرة المالية والمنزلة الاجتماعية كان يبالغ في هذه المراسيم ويزيد من الأبهة والفخامة منها، في حين يتعذر على الطبقات الفقيرة وعامة الناس، فلاشك أن مراسيم دفنهم أكثر بساطة واقل تكليفاً لما يترتب عن ذلك من نفقات.ولم تكن التقاليد والعادات تسمح باصطحاب النساء إلى مراسيم الدفن، بل عليهن البقاء في الدار والتأسي بما يقرأ بالمناسبة من قبل القارئة (الملاية)[cxli].وتعد الترب[cxlii] في مدينة دمشق جزء من المآتم والأحزان لان التربة عند الأهالي هي القبور، وهذه القبور تكون على صورتين مختلفتين هما:قبر على شكل قبة، وكلاهما شيد كمدافن، ويرجع أصل القبور على شكل أبراج إلى منشآت بسيطة قبل الإسلام إلى ما بعد العصر العباسي، وهذه القبور تزورها الناس عندما يغمرهم الحزن[cxliii].أما أول مقبرة للمسلمين بمدينة دمشق فكانت في باب توما، والتي دفن فيها عدد كبير من المسلمين يوم نزولهم إلى مدينة دمشق[cxliv]، إلى جانب مقابر كثيرة منها مقابر باب الفراديس، ومقبرة سويعة صاروجا بها صالحون من أجل المسلمين ومقابر صوفية[cxlv]، بها جماعة من أئمة الدين وصالحي المسلمين وغيرها من المقابر.وقد اتبع أهل دمشق في هذه المناسبة مراسيم خاصة منها، أن عملية غسل المتوفى[cxlvi] يحضرها أهله وأصدقاؤه[cxlvii]، وتثبت طبيعة وفاته بشكل سليم أثناء عملية الغسل أمام الحاضرين، ثم يكفن بنسيج شرعي[cxlviii]، ليس فيه بهرج، ولا خروج عن كفن السلف الصالح، تشيع- بعدئذ- الجنازة إلى أحد الجوامع؛ حيث تقام صلاة الجنازة[cxlix] عليه، قال ابن جبير : (يمشون أمام الجنائز بقُرّاء، يقرؤون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مُبكية، تكاد تنخلع لها النفوس شجناً وحناناً، يرفعون أصواتهم بها، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان)[cl]، وفي تقاليدهم تنقطع المراسيم عند باب الجامع، إذا كان المتوفى من عامة الناس، في حين يستمرون في قراءة القرآن حتى موضع الصلاة عليه، إذا كان المتوفى من عليه القوم، فيها روي أن المتوفى من هذه الفئة يقصد به إلى الجامع الأموي، قال ابن جبير : (وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن، بإزاء باب البريد، فيصلون أفراداً أفراداً، ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤونها، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلد وأعيانهم)[cli].ويلقب الذين يحضرون عزاء المتوفى من علية القوم بألقاب متعددة تكريماً واحتراماً، وقد علق على ذلك ابن جبير بقوله : (فتسمع ما شئت من صدر الدين، أو شمسه، أو بدره، أو نجمه، أو قرينه، أو بهائه، أو جماله، أو مجده، أو فخره، أو شرفه، أو مُعينه، أو محبيه، أو زكيه، أو نجيبه، إلى ما غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة، وتتبعها ولاسيما في الفقهاء بما شئت أيضاً من سيد العلماء، وجمال الأئمة، وحجة الإسلام، وفخر الشريعة، وشرف الملة، ومغني الفريقين، إلى ما لا نهاية من هذه الألفاظ المحالية)[clii]، ثم يتوجه كل واحد بحسب مكانته لتقديم التعزية.

وبعدها يشّيع إلى المقبرة؛ حيث تقرأ أثناء ذلك قصيدة البوصيري[cliii] المشهورة بالبردة، ومنها :

أمِنَ تذكُّر جيران بذي سَلَمَ ... مَزجْتَ دَمْعاً جَرَى من مُقلةٍ بَدَمِ
أمْ هَبَّت الرّيحُ من تلقاء كاظمةٍ ... وَأوْمَضَ البرقُ من الظُّلماءِ من أضَمِ
فما لعَيْنَيْكَ إنْ قلتَ إكففا همَتا ... وما لِقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ استفقْ يهم
أيَحْسَبُ الصَّبُّ إنَّ الحبَّ مُنْكَتِمٌ ... ما بين مُنسَجِمٍ منه ومُضطرِمِ[cliv]

وعند نزول المتوفى إلى قبره يقوم جماعة بقراءة سورة ياسين، ثم تبارك، ثم الإخلاص، ثم المعوذتين، ثم الفاتحة، وأوائل سورة البقرة، طلبة مراسيم الدفن، وبعدها يهال التراب على المتوفى، وعندها يصيح المؤذن في الناس، غفر الله لعبد جلس، فيجلس الجميع وضع القرفصاء، ينصتون حتى ينتهي أحد الشيوخ من تلقين الميت بالتوحيد والدعاء والغفران، وكان الناس تفضل دفن موتاهم عند الأئمة الصالحين والشهداء[clv].وفي المراسم المتصلة بهذا المعنى بعد الانتهاء من مراسيم الدفن، يجتمع الأهل والجيران والأصدقاء بعد صلاة العشاء في مجلس يستمعون فيه إلى قراءة القرآن، ويتصدقون على الفقراء والمعوزين بالمال والطعام والكساء، ويستمر هذا التجمع لمدة ثلاث ليال تعرف بالصباحية[clvi]، والراجح أن الميسورين من الأغنياء، ومن يتمتع بالقدرة المالية

والمنزلة الاجتماعية، كان يبالغ في هذه المراسيم، ويزيد من الأبهة والفخامة فيها، في حين يتعذر ذلك على الطبقات الفقيرة وعامة الناس، فلا شك أن مراسيم الدفن عندهم أكثر بساطة، وأقل تكليفاً لما يترتب على ذلك من نفقات. ولم تكن التقاليد والعادات تسمح باصطحاب النساء في مراسيم الدفن، بل عليهن البقاء بالدار والتأسي بما يقرأ بالمناسبة من قبل القارئة (الملاّية)، وروي أنه - في المدد اللاحقة - منعت النسوة من البكاء والعويل على الميت، لما روي عن السلف الصالح أنه غير مستحب[clvii].

الهوامش والمصادر

[i] – باشا، حسن، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، (القاهرة – ١٩٧٥م)، ص١٣٠.

[ii] – ذكر ابن شداد المتنزهات الموجودة في مدينة دمشق والتي يرتادها أهلها في هذه المناسبات. (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم(ت ٦٨٤هـ/١٦٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، (دمشق–١٩٥٦م)، ص١٨٠ وما بعدها).

[iii] – السامرائي، فراس سليم حياوي، التقاليد والعادات الدمشقية، دار الأوائل، (دمشق–٢٠٠٤)، ص١٧٥.

[iv] – حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي، دار ومكتبة الجيل، (بيروت–٢٠٠٥)، ج٢، ص٣٥٤.

[v] – علي، محمد كرد، خطط الشام، مطبعة الحديثة، (دمشق–١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)، ج٦، ص٢٩٣.

[vi] – السامرائي، التقاليد والعادات، ص١٧٦.

[vii] – ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العربية، (القاهرة–د.ت)، ج٤، ص١٠٥.

[viii] – القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي(ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى وصناعةالأنشا، مطبعة الأميرية، (القاهرة–١٩١٤م)، ج٣، ص٥١٥.

[ix] – الطنطاوي، علي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، دار الفكر، (دمشق – ١٩٥٩م)، ص١٣٣.

[x] – المصدر نفسه، ص١٣٤.

[xi] – المصدر نفسه، ص١٣٨.

[xii] – وهي دكاكين من خشب لها طبقات وتغطى بالستائر ذات اللون الأخضر والأحمر، وتصف عليها السكاكر والألاعيب. (الطنطاوي، دمشق، ص١٣٥).

[xiii] – ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني، (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م)، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، حققه وقدم له: أيمن فؤاد سيد، دار صادر، (بيروت–١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص١٧٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٩.

[xiv] – أحد أبواب القصر كان يفتح في واجهته الشرقية، وسمي باب العيد لأن الخليفة كان يستخدمه في الذهاب إلى صلاة العيدين في المصلى. (ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص١٧٨).

[xv] – سورة الأعلى، آية «١».

[xvi] – سورة الغاشية، آية «١».

[xvii] – ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ص١٧٨–١٧٩.

[xviii] – البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم(ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري، تحقيق: قاسم الشماعي، (بيروت–١٩٨٧م)، ج٢، ص٢٣٦؛ الترمذي، ابن عيسى محمد، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة الإسلامية، (د.ت–د.م)، ج٢، ص٤١٠ وما بعدها.

[xix]) ورفيقاه أبو بكر وعمر، يصلون صلاة العيدين قبل الخطبة، ثم يخطبون. الترمذي، سنن الترمذي، ج٢، ص٤١١. ﷺ – كان الرسول (

[xx] – المقريزي، أبي العباس تقي الدين أحمد بن علي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، إغاثة الأمة بكشف الغمة(الخطط المقريزية)، ج١، ص٤٩٠ وما بعدها.

[xxi] – المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٤٩٠، وما بعدها؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري (عصر السلاطين والمماليك)، ص١٧٦، وما بعدها.

[xxii] – وهي كلمة تركية، ومعناها الاصطلاحي الهدف الذي يستعمل في اللعبة. المقريزي، أبي العباس تقي الدين أحمد بن علي(ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، (القاهرة–١٩٥٦م)، ج١، ص٢١٨؛ أحمد، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، (القاهرة–١٩٧٧م)، ص٢٩٣.

[xxiii] – ابن واصل، محمد بن سالم نصر الله(ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، (مصر–١٩٦٣)، ج١، ص ص٢٦٠–٢٦١؛ البنداري، قوام الدين أبو الفتح علي بن محمد(ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية البزاوي، (مصر– ١٩٢٩م)، ص٣١.

[xxiv] – ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ص٢٦١–٢٦٢؛ ابن قاضي شهبه، بدر الدين، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، (بيروت–١٩٦٠)، ص٢٢٨.

[xxv] – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤٨، نقلاً عن مخطوط مخدرات العصور، ورقة (٥٧).

[xxvi] – أبو البقاء، عبد الله بن محمد البدري الدمشقي(ت حوالي ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، مطبعة السلفية، (القاهرة–١٣٤١هـ)، ص ص٧٧–٧٨.

[xxvii] – ويقع قرب القلعة، وإلى جواره ميدان الحصا، وقد وصفه ابن جبير أروع وصف، بقوله: (هو أبدع المناظر). محمد بن أحمد(ت٦١٤هـ/١٢١٧م) رحلة أبن جبير، (بيروت–١٩٦٤م)، ص٢٧٧.

[xxviii] – ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٨١، وما بعدها.

[xxix] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ص٦١٣–٦١٤.

[xxx] – الطنطاوي، دمشق، ص١٣٣.

[xxxi] – المصدر نفسه، ص١٣٥.

[xxxii] – الطنطاوي، دمشق، ص١٣٦.

[xxxiii] – سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الفاطمي (الكتابة والكتاب)، منشأ المعارف، (الإسكندرية– د.ت)، ص١٣٦.

[xxxiv] – محاسنة، محمد حسين، تاريخ دمشق في العصر الفاطمي، مراجعة وتقديم: منذر الحايك، صفحات للطباعة والنشر، (دمشق–٢٠٠٨م)، ص١٩٤.

[xxxv] – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٦٤؛ ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار(رحلة ابن بطوطة)، دار صادر، (بيروت–١٩٦٤م)، ص١٠٦.

[xxxvi] – خسرو، ناصر، سفرنامه، ترجمة: يحيى خشاب، (بيروت – ١٩٨٣م)، ص٥٥.

[xxxvii] – الطنطاوي، دمشق، ص١٤١.

[xxxviii] – ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٨١؛ أبو البقاء، نزهة الأنام، ص ص٧٧–٧٨.

[xxxix] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٦١٤.

[xl] – سلام، الأدب في العصر الفاطمي، ص١٣٦.

[xli] – البخاري، صحيح البخاري، ج ٢، ص٤٣٦؛ الترمذي، سنن الترمذي، ج٢، ص٤١٠.

[xlii] – باشا، دراسات في تاريخ الحضارة، ص ص١٣٠–١٣١.

[xliii] – عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة، ص٢٦٩.

[xliv] – ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٠٥.

[xlv] – الغزولي، علاء الدين بن عبد الله، مطالع البدور في منازل السرور، ط٤، مطبعة الوطن، (د.م–١٩٨٢م)، ص١٥٧؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤٥.

[xlvi] – أبو البقاء، نزهة الأنام، ص١٢٩؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤٥.

[xlvii] – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤٤، نقلاً عن مخطوط مخدرات العصور، ورقة ٤٣.

[xlviii] – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٣٤٤، نقلاً عن مخطوط مخدرات العصور، ورقة ٣٤.

[xlix] – ابن كتان، محمد بن عيسى(ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م)، المروج السندسية الفسيحة، تحقيق:محمد أحمد دهمان، (دمشق–١٩٤٧م)، ص١١١.

[l] – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤٨.

[li] – أبو البقاء، نزهة الأنام، ص١٣٦؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤٨.

[lii] – ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل(ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، دار أحياء التراث العربي، (بيروت–د.ت)، ج١، ص٢٩٩.

[liii] – أصل النوروز يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه الذهب عند ملكه، رد إليه بعد أربعين يوماً، فأعاده إليه ملكه واتته الملوك وعكفت الطيور، فقالت الفرس (نوروز آفد) أي جاء اليوم الجديد: فسمي بذلك "نوروز" وأمر سليمان الريح فحملته، ورآه خطاف فقال: "يا أيها الملك إن لي عشاً فيه بيضات، فأعدل لا تحمله"، فعدل سليمان، ولما نزل على الأرض ثانية حمل الخطاف في منقاره ماء، فرشه بين يدي الملك، فذلك أصل رش الماء والهدايا في النوروز. (ينظر: البيروني، محمد بن أحمد الخوارزمي(ت٤٤٠هـ/١٠٤٩م)، الآثار الباقية على القرون الخالية، مطبعة برلين، (د.م – ١٩٢٣م)، ص ص٢١٦–٢١٧).

[liv] – Mazabery, Ali , Lavie Quzidienndes Moyen Age , Paris , 1916 , P.64.

[lv] – ثم نقله المسلمون إليهم، وصاروا يقدمون فيه الهدايا إلى السلطان، كما يصنع الفرس. (ينظر: البيروني، الآثار الباقية، ص٢١٧؛ المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد(ت٣٧٥هـ/٩٨٦م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، مطبعة بريل، (ليدن–١٩٩٦)، ص١٨٢).

[lvi] – مسكويه، ابي علي أحمد بن محمد(ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)، تجارب الأمم، مطبعة شركة التمدن الصناعية، (مصر–١٣٣٣هـ/١٩١٥م)، ج٢، ص٢٥٩.

[lvii] – البيروني، الآثار الباقية، ص٢٢٣.

[lviii] – المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٤٩٣.

[lix] – المصدر نفسه، ج١، ص٤٩٣.

[lx] – وهو من أعياد النصارى وشاركهم المسلمون في الاحتفال به، فكانت تتوافد فيه المشاعل والشموع، وتقدم فيه المأكولات والمشروبات، وخصوصاً بالفترة الفاطمية. (المقريزي، أبي العباس تقي الدين أحمد بن علي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، اتعاظ الحنفا لأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت–٢٠٠٦م)، ج٢، ص٢٥؛ الخطط المقريزية، ج١، ص ص٢٦٥–٢٦٦).

[lxi] – سلام، الأدب في العصر الفاطمي، ص١٤٠.

[lxii] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٦٢٠.

[lxiii] – الذي كان يطلب إلى أهل مكة أن يوقدوا النار ليلة غرة محرم ليهتدي الحجاج، واستمر الحال على ذلك حتى ﷺ – يرجع أصل هذا الاحتفال بهذه الليالي إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ولآية عبد الله بن داوود، فأمر أهل مكة أن يوقدوا النار ليلة أول رجب. (المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٤٦٤).

[lxiv] – المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص ص٤٦٤–٤٦٥.

[lxv] – ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٢٢٠.

[lxvi] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٩٩.

[lxvii] – المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص ص٤٦٦–٤٦٧؛ ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٢٢٠.

[lxviii] – المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٤٦٥.

[lxix] – ودخلت ليلة الخامس عشر، فإذا انقضت هذه الليلة استدعى منه الشمع ليكمل نقصه حتى يركب به في أول شعبان ونصفه على الهيئة التي وصفناها أعلاه والأسواق معمورة بالحلوى، ويتفرغ الناس لذلك في تلك الليالي الأربعة. (ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٢٢٣).

[lxx] – شيخ الربوة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابي بكر الدمشقي(ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، تحفة الدهرفي عجائب البر والبحر، (بطرسبورغ –١٨٦٥م)، ص١٩٣.

[lxxi] – متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تحقيق: محمد عبد الهادي، دار الكتاب العربي، (بيروت–١٩٦٧م)، ج٢، ص٦٥٨.

[lxxii] – ابن كتان، المروج السندسية، ص١١١.

[lxxiii] – الطبرسي، رضي الدين أبو نصر بن فضل (توفي في حوالي القرن السادس الهجري)، مكارم الأخلاق، (بيروت – د.ت)، ص ص٢٣٨–٢٣٩.

[lxxiv] – الغزولي، مطالع البدور، ص١٠٧.

[lxxv] – وهي العصى المعوجة. (ابن منظور، محمد بن مكرم(ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (مصر–د.ت)، ج١١، ص١٦٠).

[lxxvi] – الغزي، كامل بن حسين بن محمد مصطفى، نهر الذهب في تاريخ حلب، (حلب–١٣٤٥هـ/١٩٦٢م)، ج١، ص٢٤٨.

[lxxvii] – الصنيج العربي وهو الدف والصنيج ذو الأوتاد فهو طبل. (ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص١٣٥).

[lxxviii] – الغزي، نهر الذهب،ج١، ص٢٤٨.

[lxxix] – كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٢٨٧.

[lxxx] – ولكل منه أعلامه الخاصة، تجمع في المدرسة البدرائية، وتهيئ لهم ثياب جديدة، ثم يطعمون الطعام الفاخر كالسمبوسك، ويذهب بهم إلى الحمام فيتحممون ويلبسون ثيابهم الجميلة والجديدة، وتشرع الأعلام ويصطف لهم الفرسان، ويركبون الخيول المطهمة، ثم يدورون بهم حول مدينة دمشق وحارتها ثم يتوجهون بهم إلى المدرسة البدرائية، حيث يزفون ويختنون، ثم يأكلون مع الناس الهريسة، والحامض باللبن، والأرز المحلى بالعسل. (برغوت، السيد عبد الودود، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، (بيروت–١٩٧٣م)، ص ص٤١١–٤١٢).

[lxxxi] – يحتشد الناس وينشد المنشدون الأناشيد اللطيفة، ويقرأ المقرئون القرآن، ويمتطي الفرسان خيولهم المزينة كما يمتطي الهجانة الجمال المزينة، ومعهم حملة المزامير والطبول، ويحضر المطهر ويبدأ عملية التطهير، فتدق الطبول وتصدح الموسيقى ويلعب الفرسان،ويتبارون طوال النهار، والناس جميعاً يتفرجون ويستمر الاحتفال أحياناً حتى آخر الليل، وينام بعض المدعوين في بيت الطفل المختون. (برغوت، جوانب اجتماعية، ص٤١١).

[lxxxii] – أبن العديم، أبو القاسم عمر، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: علي سويلم، (أنقرة– ١٩٧٦م)، ص٢٧٦.

[lxxxiii] – أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي(ت٦٦٥هـ /١٢١٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: محمد سلمي أحمد، (القاهرة–١٩٥٦م)، ج١، ص٥٧٧.

[lxxxiv] – أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٥٧٧.

[lxxxv] – الشهاوي، عبد الفتاح، الأسرة في المجتمع العربي بين الشريعة الإسلامية والقانون، دار القلم، (القاهرة – ١٩٦٢م)، ص١٠.

[lxxxvi] – شيرو، محمد شيخان، العادات والأخلاق، بحث منشور ضمن كتاب خطط الشام لمحمد كرد علي، (دمشق–١٩٢٥م)، ج٦، ص٢٨٤.

[lxxxvii] – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٦٩.

[lxxxviii] – السامرائي، التقاليد والعادات، ص١٨٣.

[lxxxix] – وبعد أيام من العقد ينقل الجهاز الذي أعدته الزوجة إلى بيت الزوج في موكب حافل يتقدمه جماعه من الحمالين ولاعبي السيوف ومنشدي الأزجال. (أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٥١).

[xc] – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٥١؛ السامرائي، التقاليد والعادات، ص١٨٤.

[xci] – وهي تكون عادةً الاثنين والخميس. (شيرو، الأخلاق والعادات، ج٦، ص٢٩١).

[xcii] – وهم الأصدقاء والرفاق. (السامرائي، التقاليد والعادات، ص١٨٤).

[xciii] – الآلوسي، السيد محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح وتصحيح: محمد بهجة الأثري، ط٣، دار الكتاب العربي، (مصر – د.ت)، ج٢، ص ص٦–٨.

[xciv] – السامرائي، التقاليد والعادات، ص١٨٤.

[xcv] – ريسلر، جاك، الحضارة العربية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، (بيروت–١٩٩٣م)، ص٦٢.

[xcvi] – يقصد به أن سكان مدينة دمشق يخرجون فيه جميعاً إلى القابون، نساءً ورجالاً وأطفالاً ويختلط بعضهم ببعض، وكان نائب والي دمشق يأمر أحياناً بإبطال هذا العيد إن ظهر فيه بعض المفاسد الأخلاقية، وتبلغ أوامره للناس عن طريق المنادين. (برغوت، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص٤١٠).

[xcvii] – موعده عند نهاية قطاف العنب، ويحتفل فيه الفلاح ابتهاجاً بجني محصوله كله، وتوفر ثمنه بين يديه وفيه يدفع ديونه، ويعقد قران أبنائه. (برغوت، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص٤١٠).

[xcviii] – عيد يحتفل به الفلاح عند انتهاء قطافه للجوز. (برغوت، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص٤١٠).

[xcix] – المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ص١١٨–١١٩.

[c] – برغوت، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص٤١٢.

[ci] – هو احتفال خاص بشباب مدينة دمشق وصغار أبنائها، فكانوا يصنعون من الثلج تماثيل على شكل أُسود ضخمة، يصنعون واحداً منها غربي المدينة، وثانياً منها شرقها، وثالثا في وسط السوق، والرابع على باب خان الصابوني، ثم يضعون أسداً منها على منصة كبيرة من الخشب ويدورون به على الأسواق يطلبون من الناس المال. (برغوت، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص٤١٢).

[cii] – قاضي القضاة محيي الدين أبو المعالي، محمد بن القاضي زكي الدين علي بن محمد، وكان أمير صلاح الدين، وهو الذي اختاره ليلقي خطبة الجمعة في المسجد الأقصى بعد استعادته سنة ٥٨٣هـ، توفي سنة ٥٨٩هـ. (ابن خلكان، شمس الدين أحمد(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان، تحقيق: أحسان عباس، دار صادر، (بيروت–د.ت)، ج٣، ص ص٣٦٤–٣٧١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٨١).

[ciii] – أرسل الملك العزيز القاضي المرتضى بن القاضي الجليس عبد العزيز السعدي وكيلا عنه، في حين وكل الملك العادل القاضي أبا حامد بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون في تزويج ابنته من ابن عمها الملك العزيز. (ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٣٤).

[civ] – ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ص٣٤–٣٥.

[cv] – كان في خدمة صيغة خاتون مائة جارية، كلهن مطربات يلعبن بأنواع الملاهي بمائة جارية، كلهن يعملن أنواع الصنائع البديعة. (ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص٢١٤).

[cvi] – ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢١٤؛ وبالمعنى نفسه أورده الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر(ت٧٦٠هـ/١٢٣٤م)، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، (د.م–د.ت)، ج٧، ص٨٧٨.

[cvii] – ابن واصل، مفرج الكروب، ٣ج، ص٢١٤.

[cviii] – شرف الدين راجح ابن القاسم إسماعيل ألأسدي الحلي شاعر الأيوبيين، ولد في الحلة سنة ٥٧٠هـ، وتجول في مناطق عدة؛ ومنها مدن الشام، توفي سنة ٦٢٧هـ. (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٦٢٤ ٢٧٥؛ العاملي، محسن الأمين، أعيان الشيعة، (دمشق– ١٩٤٩)، ج١، ص٧٥؛ علوش، جواد أحمد، أدباء حليون، (بيروت، ١٩٧٨)، ص١٠٢).

[cix] – ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢١٤؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٧، ص ص١٧٨–١٧٩.

[cx] – الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٢٤٤.

[cxi] – وهو المقلي من الطعام، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي ، ص٢٥٣.

[cxii] – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٥٣، نقلاً عن: مخطوط مخدرات القصور، ورقة ٦٥.

[cxiii] – أبن الحاج، محمد بن محمد، المدخل، المطبعة المصرية بالأزهر، (القاهرة–١٩٢٩م)، ج٣، ص٢٩١.

[cxiv] – عاشور، سعيد عبد الفتاح، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، (القاهرة–١٩٨٧)، ص٢٢٥.

[cxv] – كيّال، منير، الحمامات الدمشقية وتقاليدها، وزارة الثقافة للطباعة والنشر، (دمشق–١٩٦٤)، ص٢٦، وقد يسمى بالشذوذ.

[cxvi] – الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٢٤٤.

[cxvii] – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٠٩.

[cxviii] – المقريزي، الخطط المقريزية،ج١، ص٤٩٥؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٦٤٥.

[cxix] – وهي بداية السنة الفارسية. (الخطط المقريزي، Mazhery, Live, Qutidiem, p.64)؛ ويصف المقريزي أن النوروز القطبي في أيامهم، وتغلق الأسواق، وتوزع الكسوة مع رجال الدولة. (ج١، ص٣٩٣).

[cxx] – وهو نهاية السنة الفارسية. (الباشا، دراسات في تاريخ الحضارة، ص ص١٣٠–١٣١).

[cxxi] – الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن الحسين(ت٣٨١هـ/٩٩٣م)، المقنع، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي ﷺ، (قم–١٩٩٩م)، ص٢٠٨.

[cxxii] – المصدر نفسه، ص٢٠٨.

[cxxiii] – ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٢٢٣.

[cxxiv] – كان الناس في مدينة دمشق في العصر الأموي نصفين، فالأمويون السنيون اتخذوا من هذا اليوم عيداً يبتهجون فيه، فيلبسون الجديد من الثياب، ويتزينون، ويكتحلون ويقيمون الولائم، فيثير الفرح والسرور في نفوسهم، أما الشيعة في مدينة دمشق من أنصار الإمام علي بن أبي طالب " ﷺ" وأولاده، فأنهم اتخذوا من هذا اليوم مأتماً يبكون فيه ويظهرون أشد مظاهر الحزن، وظل الشيعة يذكرون هذا اليوم، فيبكي فيه الرجال والنساء، وتنشد النساء من أهل البيت الشعر نادبات باكيات. (البيروني، الآثار الباقية، ص٣٣٩).

[cxxv] – ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٢٢٤.

[cxxvi] – المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٤٣٢.

[cxxvii] – البيروني، الآثار الباقية، ص٣٣٤.

[cxxviii] – ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ص٢٢٣–٢٢٤.

[cxxix] – حسن، حسن أبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، (مصر–١٩٥٨م)، ص٦٥٤.

[cxxx] – ريسلر، الحضارة العربية، ص٦٣.

[cxxxi] – السامرائي، التقاليد والعادات، ص١٨٨.

[cxxxii] – –ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٣٤.

[cxxxiii] – Mazabery, Lavie Qnlidien , p.65.

[cxxxiv] – الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٢٥٤.

[cxxxv] – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٦٧.

[cxxxvi] – المصدر نفسه، ص٢٣٤.

[cxxxvii] – المصدر نفسه، ص٢٣٤.

[cxxxviii] – المصدر نفسه، ص٢٦٧.

[cxxxix] – يفضل الأثرياء الدفن في الأماكن المقدسة. (ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٨٦)؛ Mazabery, Lavies Qantidien, p. 70.

[cxl] الغزي، نهر الذهب، ج٢، ص ص٢٧٥–٢٧٦؛ – Mazabry , lavie Qntidier, p.80.

[cxli] – ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٢٢١.

cxlii" – يذكر أبو البقاء إن من المدفونين في مدينة دمشق من العظماء المقدسين وبالتحديد في مقبرة باب الصغير ثلاث من زوجات النبي محمد "، وفضة جارية فاطمة، وقبر أم الحسن بنت ﷺ "، وقبر زوجة أم الحسن بنت جعفر بن الحسن بن الحسين، وقبر خديجة الكبرى هؤلاء كلهم مقبرة واحدة. (أبو البقاء، نزهة الأنام، ص٣٧٥). ويقال من أراد أن ﷺحمزة بن جعفر الصادق " ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون فليأت مقبرة الفراديس، وهي مقبرة مدينة دمشق، فيها قبور من الصحابة الأخيار. (ابن عساكر، ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي(ت ٥٧١هـ/١١٧٦م)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (دمشق–١٩٥٤م)، ج١، ص٢٦٦؛ تهذيب تاريخ دمشق، ط٢، دار الميسرة، (بيروت–١٩٧٩م)، ج١، ص٢٦٩). أما مقبرة الباب الصغير فقد حرثت وزرعت بعد مائة سنة فلذلك لا تعرف القبور. (أبو البقاء، نزهة الأنام، ص٣٥٧).

cxliii – الشهابي، قتيبة، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية، منشورات وزارة الثقافة، (دمشق–١٩٩٥م)، ص١٥.

cxliv – ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١، ص٢٧٠، ص٢٧٣.

cxlv – مقابر الصوفية: هي الواقعة الآن في حديقة مستشفى مدينة دمشق على نهر بانياس عند محطة البرامكة غربي مدينة دمشق. (ينظر: أبو البقاء، نزهة الأنام، ص ص٣٧٨–٣٧٩).

[cxlvi] – أطلق على المؤسسات الجنائزية الخاصة بتغسيل الموتى وتجهيزهم للدفن، مغاسل الموتى، وهي مؤسسة خيرية، تقوم بتغسيل الأموات من الفقراء، وتجهيزهم للدفن. (عاشور، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ص٢٨٤–٢٨٥).

[cxlvii] – الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٢٥٦.

[cxlviii] – يكون الكفن واحدا أو اثنين، وهو من الكتان، ويمنع استخدام الحرير بالنسبة للرجال، ولكن النساء تكفن بأكفان أكثر من الرجال. (Mazahery, Lavie, Qutidiem, p.65.)

[cxlix] – الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٢٥٤.

[cl] – رحلة ابن جبير، ص٢٦٧؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٠٦.

[cli] – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٦٧.

[clii] – المصدر نفسه، ص٢٦٧.

[cliii] – هو الشاعر المعروف البوصيري (٦٩٤هـ/١٢٩٤م)، صاحب القصيدة المشهورة بالبردة تكريماً لرسول الله ﷺ)، وكانت تنشد في أيام الجنائز. (ريسلر، الحضارة العربية، ص٢٦٠).

[cliv] – البوصيري، محمد بن سعيد بن حمادي بن عبد الله(ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، ديوان البوصيري، تحقيق: محمد رشيد الكيلاني، (د.ت– د.م)، ص١٩٠.

[clv] – يفضل الأثرياء الدفن في الأماكن المقدسة. (Mazahery, Lavie, Qutidiem, p.70.)

[clvi] – الغزي، نهر الذهب، ج٢، ص ص٢٥٧–٢٥٨؛ Mazahery, Lavie, Qutidiem, p.80.

[clvii] – ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٢٢١.